حقيقة التحليل النفسي

للاستاذ موكلي

نقلها الى العربية : حسن السلمان
مدير منطقة معارف البصرة

— ٢ —

فرويد والفروق الفردية عند الاطفال

من أهم النظريات التي جاء بها فرويد نظرية الفروق الفردية عند الاطفال . فقد قسم فرويد الاستعدادات الفطرية — او كما يسميها بعض علماء النفس الميول السلوكية — الى فروق ذاتية وفروق جنسية . وقد نالت الفروق الجنسية النصيب الأوفر من بحثه ودراسته ويرجع ذلك الى اعتقاده بأن الفروق الجنسية في البالغين ليست ناجمة عن سبل تربوي واحد بدأ مفعوله عند البلوغ وانما نشأت عن ميول جزئية متأصلة في الأطفال . ويصنف هذه الميول الجزئية كما يلي : (١) الميول الجزئية المتعلقة بالفم وتظهر في شكل حب الطفل لمرضاعة ورغبته في مص حلمة ثدي أمه (٢) الميول الجزئية المتصلة بالشرج وتتصل هذه بالطرف الآخر من القناة الهضمية ، وتظهر عند الأحداث في شكل الاهتمام بمواضع التبرز (٣) الميول الجزئية المتصلة بأعضاء التناسل (٤) الميول الجزئية التي تظهر في شكل حب الظهور أو حب الاطلاع (٥) الميول الجزئية المتصلة بحب التعذيب أو حب الاستسلام أو حب التألم . ويرافق هذه الميول الجزئية انفعال شهواني يعبر عن رضى الشخص واطمئنانه ، ويكون المصدر الأساسي للاعمال التناسلية التي يأتيها البالغ والكل اشباعاً للشهوة الجنسية

ويقرر فرويد أن الميول الجزئية المبكرة الذكر ما هي الا سبل منشعبة من مصدر واحد هو الشهوة الجنسية ، ولهذا فهي حرية بأن تدعى بالدوافع الشهوانية . ومما لا ريب فيه ان شخصية الانسان لا تكامل ما لم تشترك ، دوافعه الشهوانية مع دوافعه الأنانية في العمل على اعماله العقلية . فاذا ما كان نمو الانسان طبيعيًّا فان الميول الجزئية التناسلية تسيطر على دوافعه الشهوانية — فاذا ما بلغ الطفل الخامسة من عمره وصل الى دور تناسلي يدعوه فرويد دور « سلطة العضو التناسلي » وتتألف هذه السلطة من نوعين مختلفين من الشعور أحدهما حسي والآخر انفعالي كالعطف والرقة والتودد وغيرها مما يظهر به الطفل في مثل ذلك السن . وبعد

ان يجتاز الطفل ذلك السن الى دور الخمود لا تقوم العوامل نفسه بعض ما وقعت حادثة حاملة حتى سن البلوغ ، اذ تعود اليها فعالتها ثانية فيبلغ الانسان عندئذ دور «النضوج الثاني» وفي هذا الدور يتم تجمع الدوافع الشهوانية فتبدأ بعض العوامل كالتضارب الفكري والسكبت والاحلال نفس فعلها

التضارب الفكري

كثيراً ما نشعر ان أفكارنا عرضة للتصادم وللتضارب . فلنفرض مثلاً اني وددت الذهاب الى احدى دور السينما لمشاهدة رواية تمثل أهم أدوارها الممثلة المعروفة مارلين ديتريش . ففي الوقت الذي افكر فيه بالذهاب الى السينما تمر بخاطري فكرة أخرى هي ان الواجب يقضي عليّ بزيارة احد اقاربي الذي اصيب بمرض عضال . وتقال هاتان الفكرتان في نزاع وحلة من الزمن فاذا ما كانت الرغبة في مشاهدة الرواية قوية الأثر فان نفسي تحدثني بوجوب تأخير زيارة قريبي المريض ليوم آخر ، واذا ما كان الشعور بالواجب أقوى فسيحتل في نفسي المحل الأعلى فتأخذ نفسي تحدثني عندئذ بان قضاء ليلتي باحدى دور السينما ليس السبيل الصالح لقضاء ساعات الفراغ وان مارلين ديتريش لا تستحق الاهتمام الذي اهديه نحوها ، وان الساعة التي اقضيها بجنب فراش قريبي سيمنحه الرضى في قلبي والسرور والاطمئنان في نفسه مما سيختلف من آلامه كثيراً . وعلى هذه الوتيرة يبقى الانسان حائراً بين افكاره المختلفة الاتجاه ربما تغلب احدى الفكرتين على الاخرى وعندئذ ترتجه بكليته لتحقيق الفكرة الراجحة الكفة

وفي بحث مقتضب كهذا ليس من السهل علينا ان نسترسل في تحليل هذه الأنواع من الاعمال العقلية ، ويكفي أن نقول عنها ان التضارب الفكري شعوري يعتمد على وجود استعدادات عقلية خاصة . ففي المثال المتقدم يوجد استعدادان مختلفا الاتجاه يعرف احدهما بالرغبة في مشاهدة الرواية السينمائية والآخر بالعاطفة نحو قريب مريض . واستعداداتنا النزوعية تعين رغباتنا . فالشخص الذي ولع بمشاهدة الاشرطة السينمائية مثلاً لا بد أن يكون ممن يعجب بشخصيات شهيرات الممثلات وشهيري الممثلين ، وممن يهتم بالاطلاع على أسرار حياتهم وبمعرفة الأدوار التي يمثلونها .

ومن الجلي اننا لا نهتم ولا نكترث لمعرفة الأشياء التي لا رغبة لنا فيها ، واننا لا نحب أن نسمع عنها شيئاً . فاذا صارت لنا رغبة ملحة في شيء ما فان قابلياتنا وذاكرتنا تفعل فعلها في جمع الحقائق الكثيرة عن ذلك الشيء . فقد يسألني شخص عن كوكب من الكواكب السينمائية في لحظة أكون بها مسترسلاً في التفكير في قضية من قضايا علم النفس فلا استطيع اجابته عما يريد ولو أعاد عليّ السؤال في وقت اتحدث فيه عن السينما وأشرطتها وعن التطورات الحديثة في عالم السينما لأجبته عن سؤاله جواباً شافياً . ويتضح من هذا أن استعداداتنا لا تتضارب بعضها مع بعض وحسب ، بل يحجز بعضها بعضاً ، حتى اذا ما كان أحدها بكامل فعاليته حال دون

تداعي الافكار المتعلقة بالاستعداد الآخر وبدلا من تذكر شيء من الأفكار المتعلقة به . وقد يحدث أحياناً ان بعض رغباتنا يتنافر بعضها عن بعض فلا ترتبط بعضها ببعض رابطة ما فيؤدي ذلك الى أن أحد الاستعدادين يطغى على الآخر ويقهره وبعد أن تمضي مدة من الزمن لا يجد الاستعداد المقهور محالاً للظهور في دائرة الشعور ظهوراً ثابتاً فيظل كامناً منسياً . ويدعو فرويد هذه الاستعدادات بالاستعدادات المكبوتة واليها يعزو مختلف أسباب الاضطرابات العقلية

الكبت والاهمال والاستعراء

من الخطأ أن يظن بأن الكبت الفكري عمل شعوري ، فالاستعدادات النزوعية وإن حاولت الظهور بشكل شعوري من حين لآخر ، يقاومها العقل ويحول دون ظهورها حتى وإن اتخذت سبلاً غير مباشرة للظهور . فمثلاً اذا ما ازداد ميل الانسان نحو العلوم الطبيعية تضاءلت رغبته في البحث فيها وفي الاطلاع على ماخفي في أسرارها ، فيؤدي هذا الى ابتعاد جميع الافكار والدوافع المتعلقة بالعقائد الدينية عن الشعور وازوائها في اللاشعوري دون أن يكون لعقل الانسان اختيار في ذلك . وقد يكتسب الانسان في حالات كثيرة بعض العادات الخلقية فيكيف سلوكه بحسب المثل التي يقرها الدين تكيفاً غير شعوري وتبدو هذه العادات كأنها من نتائج التعاليم الدينية التي تلقنها المرء في أول حياته . واذا ما نبه الانسان الى انتقاد تلك العادات حاول تكران تأثره بالتقاليد الدينية زاعماً أنها غير مقيم وزناً لها

أما الاحلال فيقصد به اثارة الميول النزوعية من جراء أحوال طارئة أو من حدوث أشياء جديدة ، وتظهر هذه الميول على هيئة سلوك مكتسب جديد . ويرى فرويد وجماعة من اتباعه أن أكثر أنواع سلوك الانسان البالغ مشتقة من ظاهرات احلالية عديدة أو من ميول ظهرت في أول حياة الانسان بشكل اهتمام في التغذية والتبرز أي بتأثير الميول الجزئية المتعلقة بالفم والشرج . والمثال التالي يصور الاحلال أحسن تصوير

لنفرض أن طفلاً وضعت أمامه دمية أرنب كبير ، وفي كل مرة تعرض الدمية على الطفل يصرخ أحد الخلفاء صراخاً عالياً مزعجاً . فيعتري الطفل بادىء بدء خوف من الدمية خاصة عندما يرافقها الصراخ المزعج ، ثم يزداد به الخوف حتى يظهر عليه كلما وقع نظره على دمية شبيهة بتلك فما السبب في هذا الخوف يا ترى ؟ ان الدمية والصراخ العالي سببان حسيان أما جوابهما فهو فزع الطفل من الصراخ وهذا الفزع يستحيل الى الخوف من صورة الدمية أو من كل ما يشبه الارنب . ان للاطفال استعداداً للخوف كلما سمعوا أصواتاً عالية وقد حل محل هذا الاستعداد استعداد آخر هو الخوف من الارنب ، ومع هذا فان الاحلال لا ينجي الطفل من الفزع من الاصوات المرتفعة ولكن بالاضافة الى خوفه من هذه الاصوات سيظل يخاف من الأرنب او من كل ما يشابه الأرنب

وظل استعدادات الانسان حتى بعضها عن البعض الآخر طالما هناك روابط تصل هذه الاستعدادات بعضها ببعض : فقد يتحول خوف الطفل من الأرنب الى الخوف من السيدات اللاتي يرتدين فروا مماثلا لفرو الأرنب ثم يتطور الى الخوف من المحلات اللاتي يرتدين فروا ناصع البياض غالي الثمن . وقد تسمع ذلك الطفل بعد ان يتقدم به العمر يتكلم ويقول انه يكره كل سيدة متكبرة لا ترتدي الا الفرو الغالي الثمن غير دار انه لم ينطق بقوله هذا الا لانه كان فريسة امدد من الظواهر الاحلالية اللاشعورية

اما الاعلاء فاحلال مؤد الى تكوين فعاليات ذات منزلة اجتماعية في حياة الانسان ، وليس كما يعتقد البعض انه تحويل في الرغبات التناسلية وظهورها بشكل واع في لعبة رياضية او هيام بعمل خاص فالاعلاء لا يتصل بهذه الرغبات وانما يرتبط ارتباطا دقيقا بميول الانسان الطفلية

وفي الأعوام الخمسة الاولى من حياة الطفل تكون العلاقة بين تضارب الأفكار والكبت اللاشعوري والاحلال وبين تكون الرغبات الشهوانية غاية في التعقيد ، وانه لمن المتعذر في مثل هذا البحث الموجز ان نأتي على شروحها بشيء من الاسهاب او التطويل . ولكني ان اورد هنا مثلا واحدا يشير الى علاقة الاحلال بالميول الجزئية المتعلقة بالشرج . تسمي بعض الأمهات الى تعويد اطفالهن التبرز في مواقيت معينة ، ولما كان الاطفال يشعرون بشيء من الرضى والسرور كلما تخلصوا مما تجمع في امعائهم من اوساخ وأقذار تراهم يحجمون عن تقييد ميولهم رغبات غيرهم ، ويعزو فرويد هذا الاحجام الى النزعة الفردية التي تكون شديدة في بعض الاطفال وتنمو بنموهم الجسمي . فالطفل يشعر بضيق محيطه العائلي فينفر منه شيئا نحو محيط اجتماعي اكثر سعة من ذلك فينجم عن ذلك أن تنمو في الشخص نزعة فردية تمنعه عن الخضوع لرغبة والديه او من يحيطون به . ويعتقد فرويد ايضا ان الكثير من ميول الطفل التزوعية المكبوتة تنشأ من ميول فطرية بدائية تتصل اتصالا محكما بالوظائف الرئيسية للجسم

ميل الطفل نحو والديه أو عقدة أوديبوس

وبعد ان يبلغ الطفل الخامسة من عمره تظهر فيه تأثيرات النظام العائلي ظهورا بينا فتكبت دوافعه الشهوانية وتتركز حول ميوله التناسلية وفي الوقت ذاته تأخذ ميول الطفل نحو والديه شكلا خاصا يؤدي الى ما يدعوه فرويد بوضع اوديبوس . اي ان الطفل يتغير من حيوان أنجبر الى انسان يسيره النظام ويقيد تصرفاته العرف وتتحكم في اعماله التقاليد ، ويتغير كثير مما اكتسب من عادات خاصة منها تلك التي كان يشبعها الباتون والكبول كعادة مص الاصابع مثلا وعادة الاهتمام باعضاء التبرز وعادة تعذيب الحشرات وقتلها والى غير ذلك من العادات مستعيضا عنها بعادات اكتسبها من والديه وافراد اسرته . ومما لا شك فيه ان هذا التغير يكون

مصحوباً دائماً بتعقيد في علاقة الطفل بوالديه فيشعر من جراء ذلك بان امه هي التي حافظت وتحافظ عليه، وهي التي تقدم له كلّ ما تشتهي نفسه وكلّ ما يحتاج اليه وهي التي اضطرته لترك عادات الطفولة ولاكتساب العادات « الطيبة » . ومع ذلك تكون ميوله الانفعالية نحو امه مزدوجة الاتجاه فهو يحبها وهو يكرهها بان كان حبه لها يفوق كرهه حصراً وكذلك يكون ميله نحو والده مزدوج الاتجاه ولكن هذا الميل اكثر تعقيداً من ذاك فاذا ما كان الطفل صبيًّا شعر بمزاحمة والده له في حب امه ولذا فهو يرغب دائماً في تنحيته عنه تخلصاً من مزاحمته، وهذا الشعور كما يراه فرويد ناشيء عن عامل تناسلي . وتبلغ غيرة الطفل حدّها الاقصى عندما تجتمع دوافعه الشهوانية نحو ميوله الجزئية التناسلية فيتمالك الطفل عندئذ لاحتلال المقام الاعلى في قلب امه . ويدعو فرويد هذه الحالة النفسية بعقدة اوديبوس نسبةً الى اوديبوس الذي قتل والده ليتزوج من امه

وتسير مع رغبة الطفل لاقصاء والده عواطف أخرى معاكسة لها في الاتجاه ، منها حب الطفل لوالده الناشيء عن عطف الوالد على ولده وحنوه عليه ومنها حب تقليد الطفل لأعمال والده وتخلقه بأخلاقه الناجمة عن اعتقاده بسعة علم والده وعلو مقدرته ولهذا ينشأ تضارب فكري في عقل الصبي بين فكرتين حبه واعجابه بوالده ورغبته الملحة في التخلص منه . ويسري البنت مثل هذا التضارب ولكنها تريد التخلص من والدتها التي تنازعها حب أبيها

هذا التضارب الفكري هو المرحلة الأولى من مراحل تكوين شخصية الطفل . وبحسب ما يعتقده فرويد ان الأساليب التي تتخذ لحل هذه العقدة هي عامل عميق الأثر في حياة الطفل القادمة . والحل الطبيعي له هو أن يتغلب شعور الطفل نحو والده واعجابه به وحبه له على دوافعه الشهوانية نحو والدته فيكبتها ، ولا يمكن أن يتم هذا الكبت الاّ بالاستسلام الى القيود التي يفرضها عليه والده . وعندئذ يتولد فيه ضمير أو « ذاتهُ العليا » كما يسميها فرويد ، وهذا ولا ريب انقلاب نفسي كبير في حياة الانسان فكبت الصبي لدوافعه الشهوانية لا يؤدي الى تغير في ميوله نحو والدته فحسب بل يؤدي الى كبت آخر يشمل قسماً من ذاته العليا ويشمل أيضاً الكثير مما كان يفكر فيه أو يأتيه في مبدأ حياته . ومع كل ذلك فان هذه الميول وتلك الافكار المكبوتة والتي ابتعدت عن الشعور ستظل محافظة على فعاليتها وتبقى كجزء مهم من اللاشعور مؤثرة في الفعالية العقلية الشعورية بأساليب شتى ومحاولة الظهور متخفية وراء ستار أعمالنا الشعورية

وبعد أن يتقدم الانسان في عمره أو عندما يصاب باضطرابات عصبية يقل الضغط على ما كبت زمن الطفولة فتحاول تلك الافكار والميول الظهور كأنها عمل من الاعمال الشعورية وقد ثبت أن قابليات الاشخاص للاضطرابات العصبية متوقفة على مقدرتهم لاعلاء أفكارهم وميولهم وهذه القابلية تختلف باختلاف الاشخاص ويكون جزء يسير منها فطريًّا في الجزء

الاكبر منها مكتسباً أوجدتهُ عوامل في المحيط تحكمت فيهِ مؤثرات في البيئة

ومما يجب الانتباه اليهِ أن امت الذات العليا بصوت الضمير ليس بالامر الدقيق فالقصد من الضمير هو الشعور بالواجب الاخلاقي أما الذات العليا فهي جزء من بناء الانسان العقلي وهي أكثر تمسكاً بالاهداف الاخلاقية مما هو الامر في الضمير. وربما كانت الذات العليا المظهر الديني للضمير أو هي كما يعتقد فرويد شعورنا « بالخطيئة » عندما نأتي عملاً لا يقره الدين

الاحلام في نظر فرويد

كان من جراء اتخاذ فرويد طريقة تحليل الأحلام وسيلة لمعالجة الاضطرابات العصبية ان وضع نظرية عظيمة الشأن عن طبيعة الاحلام . فقد كان يميز في ابحاثه عن الاحلام بين محتوياتها الظاهرية — أي الحوادث التي يذكرها صاحب الحلم كما شاهدها ، وبين محتوياتها الكامنة — أي الامور التي يمكن الكشف عنها بطريقة التفكير الحر وهواة هذه المحتويات الكامنة « رغبة صبيانية » مكبوتة او استعداد نزوعي مكبوت

ان الوظيفة الاساسية للاحلام هي المحافظة على استمرار نوم النائم ولا يمكن ان يتم القيام بهذه الوظيفة الا بابدال كل عمل يهدد النائم ويحاول ايقاظه ، عملاً كان النائم يعامل نفسه بها وينتهاه ايهم خفوته ثم كبت لسبب من الأسباب . فهو فرض أن العامل الذي يحاول ايقاظ النائم كان فكرة أزعجت الشخص قبل ان ينام فان هذه الفكرة تتصل بعد نومه باحدى رغباته الصبيانية المكبوتة . ويعزى السبب في هذا الاتصال الى توقف العوامل النزوعية المسيطرة على افكار الانسان في حالة اليقظة والى ضعف القوى الكابحة لرغبات الانسان ضعفاً موقتاً . والمحتويات الظاهرة للاحلام ان هي الا صورة ممسوحة للرغبات المكبوتة ويتوقف مقدار هذا المسخ على مبلغ تنافر تلك الرغبات المكبوتة مع المثل الاخلاقية التي يتبعها الانسان في حالة اليقظة . فاذا ما كانت تلك الرغبة قديمة جداً فانها تحاول الظهور بشكل غير متخف وتكون هي سبباً لازعاج النائم وفي هذه الحالة ينقلب الحلم الى جثام يوقظ النائم وهو يتنفس رعباً وهلعاً

ولهذه النظرية شذوذ ، كما ان النظرية الاصلية للاحلام تغيرت تغيراً زاد من مرونتها وجعلها عملية اكثر مما كانت عليه سابقاً . وقد اجمع الباحثون على أن مدلولات صور الاحلام تختلف باختلاف الاشخاص — على ان فرويد وحده ظل معتقداً بان تحليل الاحلام هو السبيل الوحيد لتفهم القوى العقلية خصوصاً تلك التي أدت الى التكبت العقلي في اول حياة الانسان

الخاتمة

ان القارىء المطلع على ابحاث التحليل النفسي يجد العرض المتقدم للتحليل النفسي غير منسجم تمام الانسجام مع ما قدم من ابحاث اختصت بهذه الناحية من علم النفس . وانهُ ما ان يتم قراءته

للبحث حتى نجيب في عجل الاسئلة التالية : هل ما جاء بالبحث كامل الجوهر ؟ وماذا تعني « العقل اللاشعوري » ، « الافكار اللاشعورية والذاكرات اللاشعورية و« الرغبات اللاشعورية » ؟ وجوابنا على هذه اننا تحاشينا ذكر هذه المصطلحات مكتفين بالتمييز بين « الحوادث العقلية » وبين « الاستمرارات العقلية »

يتحدث البعض من بحاث التحليل النفسي عن العقل كأنهُ حجرة مقسمة قسمين اختص احدهما بالشعور والآخر باللاشعور وفي كل من هذين القسمين أمور — تدعى بالافكار — وبالرغبات وبالميول الخ . هذه الأمور تنتقل من حين لآخر من احد القسمين الى الثاني فيؤثر بعضها في بعض بحسب نوع القسم الذي تنتسب اليه . ومهما كانت مكانة هذا الأسلوب من البحث في العلاج العلمي للاضطرابات النفسية فانهُ مبعث لاخطاء كبيرة في البحث النظري وسبب ذلك ان هناك فعاليات عقلية كما ان هناك حوادث خاصة بتلك الفعاليات كالتفكير والتذكر والترغيب والرغبة والتمني والنية والى غير ذلك من الفعاليات والحوادث وعلاوة على هذا فان هناك عوامل ثابتة تؤثر في الحياة العقلية وهذه العوامل ليست الا استمرارات عقلية . ومن الواضح ان الاكتفاء باطلاق اصطلاح واحد على الفعاليات والحوادث والاستمرارات لما يؤدي حتماً الى تضليل في العرض النظري للبحث والى جعل عقل طالب البحث في ارتباك وتشويش

وعند ما يتكلم المحللون النفسيون عن «العقل اللاشعوري» فانما يتكلمون عن الاستمرارات العقلية أو عن البناء العقلي ولكنهم عند ما يشيرون الى «الرغبة اللاشعورية» وبالأخص عندما يتحدثون عن « الذاكرة اللاشعورية » فانما هم يستعملون بعض الاصطلاحات المبهمة التي تحتاج الى شروح غير مقتضبة . فلنفرض ان مريضاً عولج باحد أساليب التحليل النفسي فتذكر بعض الحوادث الماضية التي لم تخطر بباله قبل التحليل فكيف نعلل هذا التذكر ؟ ان المحلل النفسي يتكلم عن الذاكرة كأنها شيء مستقر في اللاشعور كما يستقر الحصى في قاع البحر . والحقيقة انهُ يعني بالذاكرة بعض الاستعدادات والاستمرارات التي ضمت الى البناء العقلي فيما مضى من حياة الانسان وهذه الاستعدادات لم تجد لها مجالاً للظهور في الحوادث العقلية الشعورية فلما عولج المريض اثمرت فعالية تلك الاستعدادات فسنى لها الظهور مع الاستعدادات الأخرى . ان الحوادث النفسية التي يتذكرها الانسان عند التحليل النفسي هي حوادث طارئة فيما مضى من حياته أما استذكارها فأمر جديد وسيتكرر هذا الأمر كلما تذكر المريض تلك الحوادث النفسية

ان الانتقادات الموجهة الى نظريات فرويد كثيرة الا أن هذه النظريات على ما هي عليه من نقص ومن نواح ضعيفة لكبيرة المقام في العلاج النفسي لمعظم الاضطرابات النفسية . وأما مزلتها في تفهم طبيعة حياتنا العقلية فلا تقدر . وانها ولا ريب فاتحة لابحاث جديدة ولدراسات واسعة يقوم بها البحاث النفسيون المعاصرون